جولة مع الأديب الراحل
د. كامل السوافيري

ارتحل عنا إلى جوار الرفيق الأعلى منذ ست سنوات، وتحديداً في 8-2-1992ف، فارس من فرسان الأدب والنقد هو الدكتور /كامل صالح السوافيري عن عمر يناهز الثامنة والسبعين، بعد أن جلّى في ميادين العلم والثقافة، وحلّق في أجواء الأدب والنقد، فكتب المقالات العديدة في المجلات التي تعنى بالثقافة والأدب منذ عشرات السنين، إلى أن طواه الأجل المحتوم، فقد عرفته مجلة الرسالة العريقة التي أنشأها الأستاذ الزيات وكذلك مجلة الثقافة التي أنشاها الدكتور أحمد أمين ومجلة الرسالة الجديدة.

هذا في مصر أما في شبه جزيرة العرب فقد سطر العديد من المقالات الأدبية والنقدية في مجالات: المنهل والحج والفيصل في السعودية ومجلة الدوحة في قطر والعربي في الكويت.

وفي لبنان دبج مقالات أدبية ونقدية في مجلة الأديب والأداب كما ظهرت له مقالات عديدة في مجلة القلم الجديد التي أصدرها الدكتور عيسى الناعوري في عمان بالأردن، كما كان مراسلها في القاهرة، كذلك ظهرت له مقالات أخرى عديدة في الصحف والمجلات العربية هنا وهناك عبر سنوات عديدة تزيد على أربعين عاماً، مارس خلالها مهنة التدريس في المدارس الثانوية ثم الجامعة، كما عين في الثمانينات مستشاراً للنشر في دار المعارف.

نشاطه الثقافي والأدبي:

كان الأديب الراحل عضواً في اتحاد الأدباء في مصر وعضواً فاعلاً في اتحاد الكتاب والأدباء الفلسطينيين، وهو عضو في رابطة الأدب الحديث التي تعتبر امتداداً لجماعة أبوللو، من هنا رأيناه يشارك في النشاطات الأدبية التي كانت تقام في العديد من النوادي والجمعيات الثقافية والأدبية في مصر، ولم يكتف بذلك فأقام في

أسبوع.

لقد كنت بدوري-طالبا في كلية اللغة العربية حينذاك وكثيراً ما شهدت هذه الندوات التي تعرفت خلالها على العديد من الشخصيات الأدبية التي أصبحت مشهورة لها مكانتها في عالم الأدب ودنيا الشعر، أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: كمال نشأت فوزي العنقل وإبراهيم عيسى وجليلة رضا وغيرهم من مصر، ومحمد الفيتوري ومحي الدين فارس وحيلي عبدالرحمن من السودان، ومحمد الحوماني وسلوى الحوماني من لبنان ود. زكي المحاسني وزوجته وداد سكاكيني وعلي دمر من سوريا وأحمد عبدالغفور العطار من السعودية، وأبا القاسم كرو - الذي كان معنياً بنشر ديوان أبي القاسم الشابي- من تونس، أما من فلسطين فكان معين بسيو ورجاء سمرين وعلى وهارون هاشم رشيد وغيرهم.

ولقد عرضنا هذه النشاطات -موجزين- لأنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بثقافة هذا الأديب العريضة الواسعة، وتشير إلى الأبعاد القومية في رؤاه الأدبية الشاملة، ولا أبالغ في القول إذا ما ذكرت أن السوافيري قد حقق شهرة خارج مصر أكثر مما حقق داخلها، ولذا فقد دُعي لإلقاء محاضرات في جامعات الأردن والكويت والامارات- أستاذاً زائراً- كما أجرى العديد من اللقاءات الإذاعية في تلك البلدان وغيرها، وبالمناسبة فإن دعوة -قبيل وفاته- قد وجهت إليه- لزيارة الجماهيرية- من قبل الدكتور محمد أحمد الشريف لكن القدر لم يمكنه من الاستجابة لها.

ولما بذله من جهد ومعاناة وإبداع كرمته الدولة في مصر بجائزة الدولية التقديرية في الأدب كما منحته منظمة التحرير وسام القدس عند احتفالها باليوبيل الفضي للثورة 1990ف.

ولم يقتصر نتاجه الأدبي على المقالات واللقاءات والندوات بل كانت له مؤلفاته التي كانت ومازالت مراجع لاغنى عنها في الأدب العربي الحديث بعامة والأدب العربي الحديث في فلسطين خاصة، ومن هذه المؤلفات ما هو مطبوع وما هو تحت الطباعة.

أما ما طبع منها فهو:

1- الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين من 1917 - 1955 مكتبة نهضة مصر - القاهرة 1964 (رسالة ماجستير).

2- الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر - مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة - 1973 (رسالة الدكتوراة).

3- تحقيق ديوان عبدالرحيم محمود - دار العودة بيروت- 1974ف.

4- المجموعة الكاملة لمؤلفات اسعاف النشاشيبي.

5- دراسات في النقد الأدبي - مكتبة الوعي العربي- القاهرة 1979ف.

6- الأدب العربي المعاصر في فلسطين -دار المعارف- القاهرة 1979ف.

أما ما هو تحت الطبع فالكتب التالية:-

1- شاعر الوفاء ابن حمد يس الصقلي - حياته وشعره.

2- اسعاف النشاشيبي - حياته وأدبه.

3- في سبيل المجد - سيرة ذاتية.

4- تحقيق ديوان أبي إسحاق الغزي.

5- (مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام) لأبن هلال المقدسي- تحقيق.

وفي إلقائنا نظرة متأنية على هذه المؤلفات، وفي مراجعتنا للعديد من مقالات الكاتب ولقاءاته الأدبية نرى مدى الإهتمام الذي حظيت به فلسطين لديه، ولاعجب في هذا، فإن مأساة فلسطين وما تعرض له شعبها من محن، وما لحق بتراثها من تبديد وإهمال وتشويه، كل تلك عوامل حفزته على أن يتصدى لهذه المهمة الشاقة التي كلفته الكثير من المشاق، والتي تتطلب إرادة تقبل التحدي، وعزيمة لاتعرف التقاعس وترفض الطريق السهل الذي يغري به الضعف والخمول.

في مقدمة كتابه (الشعر العربي في مأساة فلسطين) يقول الكاتب[1] :

وقد اخذت اتتبع بإهتمام هذا الأدب الذي استوحي الكارثة بجميع فنونه وألوانه ماصدر منه سنة 1948ف وما صدر في السنوات التالية، وأحرص على جمعه ودراسته وتصويره للكارثة وتعبيره عنها حتى ألفيتُ عندي مادة كافية لإصدار كتاب عنوانه (أثر مأساة فلسطين في الأدب العربي الحديث) اتناول منه فنون الأدب كلا على حدة، وأتخير من كل فن ما راقني، وأقدم منه نماذج، وألقي عليه أضواء من النقد والبحث والدرس.

في أكتوبر 1952ف أصدر الاستاذ عيسى الناعوري العدد الأول من مجلة -القلم الجديد- في عمان، وفي العدد السابع منها الصادر في مارس 1953ف نشرت أول مقالة عن كتابي السالف الذكر تحت عنوان (مأساة فلسطين وأثرها في الأدب العربي الحديث) نورد بعض ما جاء فيها:

(كانت مأساة فلسطين وما ترتب عليها من نتائج صدمة عنيفة للأمة العربية وضربة قاصمة للكيان العربي، دفعت الكتاب والمؤرخين لتحليل أسبابها، وبحث نتائجها، ومحاولة علاجها، وانبرت أقلامهم تصور الفاجعة، وتصف الكارثة، وتلفت أنظار الساسة والزعماء في الأقطار العربية إلى مايتهدد العالم العربي من أخطار جسيمة بسبب قيام دولة اسرائيل التي أنشأتها بريطانيا واحتضنتها أمريكا، والواقع إن المأساة الفلسطينية هزت أفئدة العرب وأثارت عواطفهم، وأوحت إلى كتابهم وشعرائهم البيان الرائع والفن الرفيع بل كانت النكبة مصدرا من مصادر الأدب وينبوعاً من ينابيع الشعر، وموضوعاً لتأليف الكتب والأبحاث والرسائل، ومما لاريب فيه أن جرح العزة العربية وخدش القومية، وانهيار ثقة العرب في أنفسهم، كل أولئك كان أشد جوانب النكبة خطراً، وضياع قطر من أقطار العروبة يأتي في المرتبة الثانية، وتأتي بعد ذلك مشكلة اللاجئين.

[1] د. كامل السوافيري – الشعر العربي في مأساة فلسطين ط نهضة مصر – القاهرة ص11،12.

وقد أثارت هذه الجوانب الثلاثة – التي تفرّعت فيما بعد إلى مشكلات فرعية– أقلام طائفة من الكتاب والشعراء في الوطن العربي، وظهرت آثار ذلك فيما قرأناه في الصحف والمجلات من مقالات وقصائد، ويهتف بنا الضمير الأدبي أن ننوه بأول من أرسل الصيحات التي انطلقت مدوية في سماء بلاد العرب وهو الاستاذ الجليل (نقولا الحداد) الذي سخر قلمه الجريئ وبيانه الناصع لمعالجة المأساة وتبيان خطر اسرائيل من ناحية وإنقاذ اللاجئين من ناحية أخرى، وتشهد أعداد مجلة الرسالة الصادرة سنة 1984 للكاتب بأنه أدى رسالته على الوجه الأكمل.

من إطلاعنا على النص السابق الذي جاء في مقالة الكاتب التي سطرها منذ أربعين عاماً تلمس حرارة الانفعال وقوة الشعور بالصدمة لما حدث في فلسطين، يشاركه في ذلك العديد من أبناء العروبة وفي طليعتهم الشعراء والأدباء والكتاب الذين هالهم ماجرى لفلسطين وشعبها، وما أصاب أمة العرب في كل أقطارها حتى أنها لاتكاد تصدق ما تراه، ونتساءل في حيرة: كيف حدث هذا؟ وما هي أسبابه وعوامله؟ وما الموقف الذي ينبغي أن يتخذ على مستوى الدولة والفرد؟ ومن يتحمل مسئولية هذه الجريمة الشنعاء؟

نسمع هذا ونقرؤه ونترجم عنه، لأننا في أيامنا هذه نكاد نكون غير ماكناه منذ أربعين عاماً، فقد تبلدت الأحاسيس والمشاعر، وأصبحت شعوبنا وقد علا كرامتها الصدأ واستبدت بها اللامبلاة، وحاصرها الخدر وإلا فأين كتابنا وشعراؤنا؟ وأين صحافتنا ومثقفونا؟ وأين طلابنا وعمالنا؟ لماذا لايصرخون؟ لماذا لايتحدون مايجري على أرض العرب؟ لماذا يقفون مكتوفي الأيدي معصوبي العيون أمام المهازل والمهانات التي توجه إلى أمة العرب في مشرقها ومغربها؟

إن الذين عاصروا بدء المأساة في فلسطين شاهدوا وسمعوا رد الفعل عند المواطن العربي الذي كان نقياً يحمل بين برديه من أصالة العربي وكرامة الإنسان، ولم يكن قد حاصره التلوث أو تشوهت في أعماقه القيم، وتحكمت فيه توافه الأمور وسفاسفها.

قد يسأل الكثيرون عن الأسباب التي كانت وراء هذا التبدل، وسنرى في متابعة ماكتبه السوافيري وأمثاله من الرواد ما يضع النقاط على الحروف، ويجيب على الكثير من التساؤلات.

إن مجلة فلسطين قد كشفت أمام الأمة العربية ضعف الأنظمة العربية وتقاعسها مما دفعها إلى ان تصب اللعنات على رؤوس القادة والزعماء وتلقي على كواهلهم إصر الهزيمة وعار الخيبة، وتبرئ منهم الإسلام والعروبة لأنهم باعوا الشعوب من أجل مصالحهم الذاتية.

فهذا كاتب يقول[2] لن يكون في أعناقنا ولاء لأي واحد من هؤلاء الذين يتمثل فيهم سلطان العرب قبل أن يمحي هذا العار، إن في يد كل زعيم عربي أثراً من رجس، وإن أيدينا لن تصافح من جديد إلا أولئك الذين طهروا أيديهم من هذا الرجس وغمسوها في دم أعدائهم سبع مرات متواليات، لا الذين يحمون بيوت الله، ولا الذين يدعون العروبة؟ محمد نبي الله، ليس احد من هؤلاء جميعاً أهلا لأن يكون حيث يريد أن يكون حتى يكشف غمة هذا الخزي الذي تعيش في وطأته كل هذه الملايين، أما قبل ذلك فدعونا نردد قول الله تعالى: ﴿ ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب وألعنهم لعنا كبيرا ﴾.

وهذه شاعرة من فلسطين تردد نفس المعنى حين تقول[3]

ياوطني مالك يُخنى على	روحك معنى الموت معنى العدم
أمضك الجرحُ الذي خانه	أُساته في المأزق المحتدم
أين الألي استصرختهم ضارعاً	تحسبهم ذُراك والمعتصم
ما بالهم قد حال دونهم	ودون مأساتك حس أصمّ
واخجلتنا حتام أهواؤهم	تغرقُهم في لجها الملتطم
هم الأنانيون قد أغلقوا	قلوبهم دون البلاء الملمّ

[2] شكر فيصل – مجلة الرسالة القاهرية العدد 776.
[3] فدوى طرقان – وحدي مع الأيام، ص127.

ويمضي كاتب آخر ليقول[4] :

لاعجب إذن أن تسود فكرة عند الكثيرين، هي أن العرب لايصلحون للحياة وأنهم ليسوا أهلاً لتحمل أعبائها ومسئولياتها، وأنهم يعيشون على هامشها، وقد تخلفوا عن ركب الحضارة لاهين بالسفاسف والاختلافات، بينما سار الناس في سائر الديار في ركب الإنسانية جادين منتجين فورثوا الأرض وما عليها من خيرات ومافيها من كنوز.

هذه نصوص ثلاثة تبرز مدى السخط العارم الذي سيطر على الإنسان العربي بعد وقوع المأساة لكننا نجد تبايناً بينها، ففي حين يصب (شكري فيصل) لعناته على الزعماء والقادة الذين تسببوا في هذه الكارثة، ويحملهم وزرهان ويقسم أن الشعوب العربية قد خدعت فيهم، وأنها ستلفظهم، ولن تقبل زعامة أيا كان إلا إذا أخذ على عاتقه تحرير الأرض واسترداد الكرامة.

نرى (فدوى طوقان) ترثي لحال شعبها، وماعاناه من خيانة أقرب الناس إليه، فقد كان يظن أنهم سينصرونه بكل مالديهم، فإذا بهم أول من يطعنونه من ظهره.

أما (قدرى طوقان) فيثير قضية جديدة تتلخص في الشك في حقيقة الأمة العربية وتاريخها ومكانتها، وهل هي أمة جديرة بالحياة، أم أنها ركنت إلى الخمول والكسل، وأصبحت على هامش الحياة بعد أن كانت في الصميم منها ومن أحداثها! وإلا فكيف تصل بها المهانة إلى هذا الحد؟ ويرى أن الزمن قد تغير وأن الحياة لاتفتح ذراعيها إلا للذين يعتمدون على العمل والبناء، ويحرصون على التعلم والإنتاج حتى يكون لهم مكان تحت الشمس.

ويدلي السوافيري برأيه في هذا الخصوص فيقول[5] :

"إن هذه النظرة المظلمة وهذا الشك الذي يحطم أركان الثقة بالنفس، وهذا اليأس الذي يدمر صروح الإعتداد بها، وهذا الشعور بالموت الذي لاحياة بعده

---

[4] قدري حافظ طوقان – بعد النكبة، ص6.

[5] مقدمة كتابه الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين، ص16.

الأمة العربية من ضياع فلسطين، وتشريد اللاجئين، ذلك لأن الغناء هو النهاية المحتومة لكل أمة فقدت ثقتها بنفسها، وسيطر اليأس عليها، تلك عاقبة الأمة التي تخبو في صدور أبنائها شعلة الأمل الذي يمدها بالقوة ويدفعها للإنطلاق، ولن تستيقظ الأمة قبل أن تحطم من نفوس أبنائها أسوار الشك القاتل واليأس المرير.

فما أقسى الحياة إذا خبأ فيها شعاع الأمل، أفل منها كوكب الرجاء، وما أصدق الشاعر العربي حين قال:

أعلل النفس بالأمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل!

يقر الكاتب أن وقوع الكارثة قد أحدث شرخاً رهيباً في المجتمع العربي وزرع بذور الشك، وزعزع الثقة في النفس، وأخذ يدفع الإنسان العربي دفعاً إلى الإرتماء في أحضان اليأس المرير القاتل، وهذا الانهيار المروّع وما يصاحبه من فقدان الأمل في المستقبل واستسلام للهزيمة والخذلان -أخطر بكثير من ضياع فلسطين وتشريد أهلها، لأن ذلك يعني موت الأمة وفنائها، ولذا فإن عليها أن تصحو من كبوتها وأن تقتلع بذور اليأس، وتحطم أسوار الشك وتتسلح بالأمل الذي يزكيه العمل والثقة بالله وبالنفس إذا أرادت أن تحيا من جديد وقد استردت كرامتها واستعادت عافيتها.

الأدب ودوره في معارك التحرير

لاينكر أحد أثر الأدب -بكل فنونه- في حفز الهمم والعزائم وإثارتها وحثها على البذل والاستعداد للتضحية.. ولايمكن أن يغفل دوره في كشف الحقائق أمام الجماهير، والأخذ بيدها نحو التكاثف والعمل الموحد البناء في سبيل تقدم الوطن والشعب.

وعن دور الأدب في هذا يقول الكاتب[6]:

كان لهذا الشعر أثر عظيم في نفوس عرب فلسطين وفي كفاحهم وجدوا فيه أكبر عون وأعظم نصير لأنه صور لهم أمالهم وطموحاتهم وعبّد أمامهم طريق الكفاح، وحثهم على التضحية والفداء، ولذا فإن حكومة الانتداب لم تألُ جهداً في مطاردة الشعراء والكتاب والخطباء والمفكرين بل ورجال الدين، وحاربتهم في أرزاقهم وصبت عليهم نقمتها، فاضطروا إلى أن يهاجروا من فلسطين إلى الأقطار العربية المجاورة فراراً من الظلم وسعياً وراء حرية الفكر ولقد استطاع الشعر العربي في فلسطين أن يوقظ الغافلين وينبه النيام، ويستنهض الهمم، كما قاوم الاستعمار وفضح أساليب ختله وخداعه، وكشف القناع عن دسائس الصهيونية، وأزاح الستار عن مناهج الإبادة والإفناء التي رسمتها حكومة الأنتداب مع الصهيونية العالمية، وهو الذي نشر الوعي وبصّر بالحقائق، وتنبأ بالكارثة، وتوقع المأساة، وحذر عرب فلسطين النكبة، ودعا إلى تجنب حدوثها، وإعداد أهل البلاد للمعركة الرهيبة قبل نشوبها.

ونقول: إذا كان للأدب أثره في إيقاظ الوعي وتعبئة الشعوب لإيقاد الحمية والحماسة فإن نصيب الشعر في ذلك هو نصيب الأسد، ولذا رأينا كاتبنا يلح على دور الشعر بصفة خاصة، ويرى أن هذا الفن قد لعب دوره على أحسن وجه سواء كان شعراً لأبناء العروبة في أقطارها المختلفة أو شعراً لأبناء فلسطين، وقد قدم الكاتب العديد من النصوص الشعرية التي تزيد دعواه، من هذه النصوص ما قاله الأخطل الصغير من قصيدة بعنوان:-

---

[6] الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين ص300-301.

(باجتهادنا صفق المجد له)

يافلسطين التي كدنا لما ... كابدته من أسى ننسى أسانا
نحن ياأخت على العهدِ الذي ... قد رضعناه من المهدِ كلانا
يثربُ والقدسُ منذ احتلما ... كعبتانا، وهوى العرب هوانا
شرفٌ للموتِ أن نطعمَه ... أنفساً جبارةً تأبى الهوانا
انشروا الهولَ وصبّوا نارَكم ... كيفما شئتم فلن تلقوْا جبانا
غذَت الأحداثُ منا أنفساً ... لم يزدْها العنفُ إلا عنفوانا[8]

والشاعر بشارة الخوري بشير إلى ما يعانيه من أسى مع شعبنا العربي في لبنان الذي نكب بالإستعمار الفرنسي، وعلى الرغم من كونه ليس مسلما (مسيحياً) إلا أنه يُجلُّ يثرب كما يجل القدس ويرى أن الرابطة القومية ينبغي ألا تمزقها الأديان ويحث شعب فلسطين على الصمود في وجه الأعداء مهما بلغت قسوتهم، فإن العنف يولد العنف، والظلم يدفع إلى الثورة والتحدي حتماً.

ويقدم الكاتب -كما ذكرنا- العديد من النصوص لشعراء البلاد العربية فإذا كان النص السابق من "لبنان" فإن الشعراء من معظم الأقطار العربية يعبرون عن تضامنهم وتضامن أوطانهم مع قضية فلسطين وشعبها الشقيق، وها هو الشاعر السوري عمر أبوريشة يقول من قصيدة له بعنوان (عرس المجد):

يَاروابي القدس يا مجلَى السنا ... يارؤى عيسى على حضن النبي
دونَ عليائك في الرحب المدى ... صهلةُ الخيل ووهجُ القضبِ
لمست الآلامُ منا شمالنا ... وغمت ما بيننا من نسبِ
فإذا مصرُ أغاني جلَق ... وإذا بغدادُ نجوى يثربِ
ذهبت أعلامها خافقةً ... والتقى مشرقُها بالمغربِ
بورك الخطبُ فكم لفَّ على ... سهمه اشتات شعبٍ مغضبِ

---

(7) المصدر السابق نفسه، ص263 نقلاً عن ديوان "الهوى والشباب" ص165.
(8) المصدر السابق نفسه نقلاً عن ديوان أبي ريشة، ط مجلة الأدب، ص145.

فأبوريشة يستوحي قداسة فلسطين عند المسلمين والمسيحيين على السواء، ويفتديها بغالي التضحيات -صهلة الخيل ووهج القضب- وينبغي لهذه المصيبة التي ألمت ببيت المقدس أن توحد شملنا وتعمق أخوتنا -بني العرب- في كل قطر من أقطار العروبة، ولرب ضارة نافعة، فبورك هذا الخطب إذا كان يحقق لم الشمل لأمة العرب التي أهينت ومن واجبها أن تثور وتغضب لما أصاب كرامتها بل وجودها ويقدم الكاتب -ضمن ما قدم من نصوص في هذا المجال، وما أكثرها -نصاً للشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري من قصيدة له عنوانها "فلسطين الدامية" يقول منها:[9]

يا أُمةً غرّها الأمثالُ ناسيةً ... إن الزمانَ طوى من قبلها أمما
كانت كحالمةٍ حتى إذا انتبهتْ ... عضّت نواجذَها من حُرْقةٍ ندما
سيُلحقون فلسطينا بأندلس ... ويَعطفون عليها البيتَ والحرما
ويسلبونكِ بغداداً وجلقةً ... ويتركونكِ لا لحماً ولا وضما
بالمدفع استشهدي إن كنت ناطقةً ... أورُمت أن تسمعي من يشتكي الصمما

والشاعر لايعوّل على القول المساندة الكلامية، كما أن الصراخ وحده لايكفي بل إن العواطف منفردة لاترد ظالما، ولاتسترد حقاً، فإن الحقوق لاتؤخذ إلا بالقوة والتضحية، ويعلق السوافيري على قصيدة الجواهري هذه بقوله[10] .

"إن سخرية الشاعر من العواطف كانت ثورة نفس واحتراق قلب في لحظة من لحظات الألم المرير والأسى الممض على ضعف العرب المادي وحاجاتهم للقوة التي تحفظ الأوطان، وتصون الحقوق.

ومما لاشك فيه أن للعواطف أعظم أهمية في الحياة وأن من المحال أن ينقصها إنسان قدرها، أو يهون من أثارها إلا في غمره من عمرات اليأس.

ولا أرى -كما يبدو لي- خلافاً يذكر بين الشاعر الجواهري والأديب السوافيري، ذلك لأن لكل من العواطف (القوى المعنوية) والقوة المادية وظيفة

---

[9] أوردها الكاتب ص272 نقلاً عن الفلسطينيين ص1.
[10] المرجع السابق نفسه، ص321.

ولاتستغنى عنها، وليس في وسع إحداهما -بمفردها- أن تحقق ما تصبو إليه وتطمح في تحقيقه الشعوب.

ولذا فإني أوقن أن الأديب السوافيري يحفظ للقوة المادية قدرها، ولايمكن أن يغفلها أو يتجاهل أثرها، كما أن الشاعر المبدع الجواهري يعرف -قبل غيره- قيمة العواطف التي تحفز النفوس وتستثير الهمم، وتنهض بالأرواح وتقوي العزائم، والشعراء هم أولى الناس وأدراهم بالعاطفة وأثرها.

ويمضي الكاتب السوافيري في تقديم النصوص الشعرية للشعراء العرب الذين أبوا إلا أن يشاطروا فلسطين وشعبها محنتها، ومن أبرز الشعراء الذين عبروا عن وقوفهم مع شعب فلسطين -الشاعر المصري أحمد محرم الذي يقول في إحدى قصائده[11]

إيه شعوبَ المسلمين تنبهوا ... وتداركوا أسبابكم أن تُجذما
اللهَ في إخوانكم وبلادكم ... أفما ترون الخطب كيف تجهما
حفظوا التراث لكم وصانوا عِرضكم ... أفتكرهون لعرضِكم أن يسلما
أتبيتُ أولى القبلتين حزينةً ... وأبيتُ وسنانَ الجفونِ مُنعما

[11] من قصيدة عنوانها (ذكرى وعد بلفور) نشرت في مجلة الفتح العدد 577.

أثر محنة فلسطين في الشعر الحديث

يقول الأديب السوافيري – بعد أن يستعرض العديد من النصوص الشعرية[12]:

كانت محنة فلسطين مصدر وحي وجد فيها الشعر مجالاً رحباً فاستوحي كل مظهر من مظاهرها و لم تكن مصدر وحي للشعراء من أبناء فلسطين وحدهم بل للشعراء العرب جميعاً، ولقد ظهر أثر المحنة واضحاً فيما أوجدت من موضوعات، وما أوحت به من أفكار، وما استدعته من صور مستمدة من مظاهرها وأحداثها، كما ظهر هذا الأثر في انفعال الشعراء وتفاعلهم معها في كل أقطار الوطن العربي.

وإذا كان الشعر العربي في فلسطين قد انفرد بتصور تفاصيل المحنة قبل وبعد وقوعها، ودعوته العرب في فلسطين للمحافظة على الأرض والدفاع عنها، فحث على الجهاد والتضحية والهب الممارسة وأثار الوعي وأيقظه –فإن الشعر العربي في الأقطار العربية والمهجر قد أهتم بتصوير عواطف الشعراء خاصة والعرب عامة نحو فلسطين ومشاطرة أهلها مايلقون من عنت ومايكابدون من ظلم واضطهاد بدأ منذ وعد بلفور المشئوم سنة 1917ف و لم ينته.

وعلى الرغم مما أفرزته المأساة من آلم مرير وما زرعته في النفوس من اليأس القاتل فإن كثيراً من الشعراء إن لم يكن جلهم قد استمسك بالأمل، وتطلع إلى فجر يبزغ من احشاء الظلام ليبدد اليأس ويعيد البسمة إلى الشفاه، وذلك بالأمل الذي عقد على الشباب الحي اليقظ ليسترد مافقده الأباء، مهما كلف ذلك من تضحيات تبذل في سبيل تحرير الوطن السليب وعودة أهله إليه، يسوق كاتبنا نصاً للشاعرة "فدوى طوقان" مستشهداً على "الأمل في المستقبل" تقول فدوى طوقان:[13]

ستنجلي الغمرةُ ياوطني ويمسحُ الفجرُ غواشي الظُلَم

---

[12] الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين – ص358–359.

[13] من قصيدة عنوانها "بعد الكارثة" وحدي مع الأيام، ص127.

فـــالجوهَرَ الكـــامنُ في أمـــتي ما يـأتلي يحملُ معنـــى الضـــرَم
هو الشبـــابُ الحيّ ذخـر الحمـى اليقـــظُ المستوفـــزُ المنتقـــِم

هذا غيـضٌ مـن فيـض النصـوص الشـعرية الـتي استوحاها أصحابهـا مـن نكبـة فلسطين، التي ساق الكاتب منها نصوصـاً عديـدة يستشـهد بهـا علـى مـا يريـد أن يوضحه ويعرض على قرائه، وهو حين يتحـدث عـن ذلـك يقـول:[14] "أوردنـا في الفصول الخمسة السابقة من الباب الثاني من القسم الثاني من البحث مائـة وسـبعة نصوص استلهمت مظاهر المأسـاة، تفجـرت بهـا شـاعرية سـبعين شـاعرة وشـاعراً يمثلون أبناء فلسطين وأبناء الأقطار العربية وشعراء المهجر.

وأثبتنا فيما سبق نسبة كل شاعر إلى موطنه الأصلي على الرغم من إيماننا العميق بوحدة الوطن العربي الكبير، ووحدة أمتنا العربية المجيدة التي تعيش على أرض هـذا الوطن ووحدة أقطاره، وإلغاء ما بينهـا مـن حواجـز مصطنعـة، ونـرى أن الشـعراء وغيرهم ينبغي أن ينتقلوا بين أقطار هذا الوطن كما تنتقل البلابل بين الرياض".

والكاتب في دراسته للنصوص سلك طريق المنهج الفني الـذي يتخـذ مـن النـص موضوعاً للدراسة يحدد خصائصه، ويوضح قيمه، ويضئ جوانبه، وهو منهـج ذاتـي موضوعي في الوقت نفسه، يعتمد على تأثر الناقد الذاتي وخبرته اللغوية والفنية أولاً وعلى الخصائص الموضوعية والأصولية الفنية للنص ثانياً.

---

[14] الشعر العربي الحديث –ص562.

الأدب العربي المعاصر في فلسطين

من 1860 – 1960ف

تحت هذا العنوان يعرض الكـاتب للحيـاة الأدبيـة في فلسـطين خـلال مئـة سـنة يـترجم للعديـد مـن الشـعراء والكتـاب مسـلطاً الضـوء علـى الجوانـب السياسـية والاجتماعية والاقتصادية لما لها من أثر فعال في الحياة الثقافية أو الأدبية، وهو يـرى أن الأدب في هذه الفترة الطويلة يمر عبر مراحل أربـع، وحـين يتحـدث عـن تطـور الشعر في المرحلتين الأولى والثانية من 1860–1918ف يقول[15]: إن الصورة الحقيقية التي رسمنا خطوطها ووضحنا ملامحها، وفي ذلك الظلام الكثيف الذي غشـى آفـاق فلسـطين، وفي ذلـك الجهـل الضـارب أطنابـه في ربوعهـا، وخلوهـا مـن المـدارس الأعدادية الثانوية، وفي قسوة الظروف على كل من يريـد أن ينهـل العلـم فـلا يجـد أمامه إلا تلك الكتاتيب الموقوفة التي لم تنل أي حـظ مـن الإصـلاح، وإلا المـدارس الحكومية التي تعلم تلاميذها باللغة التركية، وسط هذه الظلمات التي تراكم بعضهـا فوق بعض، ومن بين هذه السحب المتكاثفة تألقت أضواء ولمعت أسماء، وشق نفـر من الشعراء طريقهم بكفاحهم الذاتي، ونضالهم من أجـل الاسـتضاءة بـالعلم فاتجـه نفر من أبناء فلسطين إلى الأزهر الشريف ينهلون منه العلم والمعرفـة وقـد اسـتهوى القريض بعضهم فنظموا العديـد مـن القصـائد في الموضوعـات الدينيـة والمناسـبات، وكانوا فقهاء شعراء في وقت معاً.

وليس من شك في أن ما نظموه من قصائد ومقطعات كان تقليداً ومحاكـاة لمـن سبقهم من الشعراء في عصور الضعف والاضمحلال وكان معارضة لقصائد بعـض الشعراء المشهورين وتشطيراً وتخميساً لقصـائد معروفـة، كـان شـعراً مثقـلاً بـألوان البديع مكبلاً بالمحسنات اللفظية.

وحين نقرر هذا يجب أن نلاحظ أن هؤلاء الشعراء كانوا امتداد طبيعياً لعصـور الضعف والتخلف الفكري، و لم يكونوا كذلك وحدهم بل كان الشـعراء في مصـر والشام وبقية الأقطار العربية في القرن التاسع عشر محاكين مقلدين، وكان شـعرهم

---

[15] الأدب العربي المعاصر في فلسطين . ط – دار المعارف ص34–35 . بتصرف.

العصر.

ويترجم لأعلام الشعر في هذه الفترة من أمثال: الشيخ يوسف النبهاني 1850 – 1932ف، والشيخ سعيد الكرمي 1852–1932ف، والشيخ علي الريماوي 1860–1919ف، والشيخ سليم اليعقوبي 1880–1946فن والشيخ سليمان التاجي الفاروقي 1882–1958، ويلاحظ أنهم جميعاً من الشيوخ الذين درسوا في الأزهر، لأن هذا النوع من الدراسة هو ما كان متاحاً في تلك الأيام، ومن ثم تكرست تلك الطريقة في قرض الشعر التي كانت مسيطرة في عهود التخلف من جراء السيطرة العثمانية على العديد من الأقطار العربية.

أما في المرحلة الثالثة التي تستوعب عصر الانتداب (1918–1947ف) فقد تطور الأدب بوجه عام والشعر منه على وجه خاص وفي هذا يقول الكاتب[16] "نهض الشعر في هذه المرحلة فلم يتحرر من القيود التي كبلته في المرحلتين السابقتين، ولم ينعتق من أسار الزخارف اللفظية والمحسنات البديعية فحسب، ولما انتقل من الصورة القبيحة التي كان يجرى عليها في العصر العثماني إلى صورة زاهية مشرقة".

فهو لم يعد مجرد محاكاة، أو تقليداً لقصائد الشعراء السابقين، أو تشطيراً أو تخميساً وإنما كان شعراً صادراً عن عواطف قائلة مصوراً لخلجات قلوبهم، وهمسات أرواحهم، تجلت فيه العواطف الصادقة للشعراء الذين عبروا عن وجدانهم ووجدان أمتهم، لأن الشاعر أحسّ أنه جزء من أمته، من عواطفها تنبثق عواطفه، وتتفاعل أحاسيسه وأحاسيسها فكان الشعراء في فلسطين الألسنة الصادقة المعبرة عما يضطرم في صدور أبنائها.

تطور الشعر الفلسطيني في الربع الثاني من القرن العشرين، وارتقى في مدارج القوة والجودة في الأغراض والموضوعات والأساليب.

أما الأغراض والموضوعات فقد استمدها الشعراء من واقع بلادهم، مما كابد أهلها من ظلم الأنتداب وبطشه وجوره وعسفه، ومن ختل الصهيونية ومكرها ودهائها ومن البطولات التي سطرها أبناء فلسطين في كفاحهم الدامي، واستهانتهم

---

[16] المصدر السابق نفسه ص73. بتصرف.

بكل وسائل العنف والضغط والإرهاب فعمدوا إلى التصدي إلى هذين العدوين اللدودين بالقلم واللسان والثورة والكفاح المسلح ونشر الوعي القومي لإيقاظ الأمة العربية جمعاء، وفتح أبصارها على مايحاك ضدها من مؤامرات، والتأكيد على حاجة الحق إلى القوة، وتمجيد البذل والفداء، وتخليد الشهداء، والدعوة القوية الملحة إلى الوحدة العربية الشاملة باعتبارها السبيل الوحيد إلى القوة والتقدم.

و لم يقف الشعراء عند الموضوعات الوطنية والسياسية -وإن كانت غالية على أشعارهم- وإنما استجابوا أيضاً لنوازع نفوسهم، وصبوات قلوبهم فتغزلوا، ورتلوا أناشيد الهوى، وترنموا بألحان الغرام، ووصفوا مالاقوا من الصد والهجر، وما نعموا به من الوصل وحلاوة اللقاء.

ووصفوا ما وقعت عليه أعينهم من مفاتن الطبيعة في فلسطين من جبال وأودية وأنهار وبحيرات وكروم وبساتين وعيون ماء وسهول ممرعة، ورثوا الأحباء والشهداء.

وقد سارت أساليبهم في ذلك كله على نهج القصيدة العربية القديمة المعتمد على الوزن والقافية الموحدة إلا في القليل النادر.

وامتازت هذه الأساليب -في معظمها- بقوة البناء والنسج، وتأثروا -دون شك- بسابقيهم ولكن شخصية الشاعر كانت واضحة المعالم في شعره غالباً.

وقد توافر لشعراء هذه المرحلة من مقومات الثقافة ووسائل المعرفة والاتصال بالتيارات الحديثة ما لم يتوافر للشعراء في المرحلتين السابقتين.

ويعتبر شعراء هذه المرحلة رواد الشعر الفلسطيني المعاصر الذين أطربوا الأمة العربية بصداحهم على دوحة العروبة في وقت سيطر فيه الإستعمار الغربي على معظم أجزاء الوطن الوطن العربي التي هبت لتحطم الأغلال وتطرد الاستعمار البغيض وتظفر بالحرية والاستقلال.

إن شعراء هذه الفترة -الرواد- قد غنوا أقوى أغاني الحرية وأججوا حماسة عرب فلسطين في معركتهم ضد الانتداب والصهيونية، بل إن البعض منهم لم يكتف بذلك وإنما حمل السلاح مقاتلاً وخاض معارك التحرير حتى استشهد

كالشاعر الشهيد/ عبدالرحيم محمود، قبل أن تفدى عيناه برؤية أشلاء قومه تتطاير في الدروب، وإن كان غيره من الشعراء قد شهد الكارثة، ورأى بلاده تغتصب، من أمثال أبي سلمى الذي أخذ يذيب عواطفه شوقاً وحنيناً إلى عهود الطفولة، ومراتع الصبا في فلسطين الحبيبة.

وفي هذه الفترة التي نشط فيها الأدب وتطور الشعر يترجم الكاتب العديد من الشعراء والكتاب الأعلام نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الشعراء: إبراهيم الدباغ 1880-1946ف، واسكندر الخوري 1880-1973ف، ومحي الدين الحاج عيسى 1900-1974ف، ومحمد العدناني 1903-1986، إبراهيم طوقان 1905-1941ف، عبدالكريم الكرمي (أبوسلمى) 1910-1990ف، وعبدالرحيم محمود 1913-1948ف، وفدوى طوقان 1914ف، ومحمود الحوت 1916ف، وعلى هاشم رشيد 1919ف، وكمال ناصر 1925-1973ف، وهارون هاشم رشيد 1927ف، وسلمى الخضراء الجيوسى 1926ف، ودعد الكيالي 1930ف.

أما أعلام النثر الذين ترجم لهم فمن أشهرهم: خليل السكاكيني 1878-1953ف، ومحمد اسعاف النشاشيبي 1882-1948، وحمد غزت دروزة 1888ف، وعارف العارف 1892-1973، وأحمد سامح الخالدي 1895-1951ف، ود. اسحاق موسى الحسينمي 1904ف، وأكرم زعيتر 1909ف، وقدري حافظ طوقان 1910-1971ف، ود. احسان عباس 1920ف، ود. محمد يوسف نجم 1925ف، ود.نادرة السراج 1930ف وغيرهم، ومن هؤلاء من اشتهر بكتابة المقالة، ومنهم من اشتهر بالتاريخ والتأليف فيه، ومنهم من عنى بالكتابة الأدبية.

ويعرف الكاتب بهؤلاء جميعاً وغيرهم متحدثاً عن نشأتهم وثقافتهم والأعمال التي تولوها في حياتهم وأثارهم التي تركوها لنا، ولاينسى أن يسوق لنا نماذج من انتاجهم الأدبي شعراً كان أم نثراً، ويجمل بنا أن نقدم بعض النماذج الشعرية والنثرية في نطاق ضيق لعلها تساعدنا على معرفة المستوى الذي وصل إليه كل من الشعر والنثر في تلك الحقبة من الزمن :

النماذج الشعرية:

1- من قصيدة عنوانها "الشهيد" يقول الشاعر إبراهيم طوقان[17]

عبسَ الخطبُ فابتسمْ ... وطغى الهولُ فاقتحمْ
رابطَ الجاشِ والنهى ... ثابتَ القلبِ والقدمْ
لم يبالِ الأذى ولمْ ... يُثنه طارئُ الألمْ
نفسُه طوعُ همةٍ ... وجمتْ دونها الهممْ
نلتقي في مزاجها ... بالأعاصير والحممْ
تجمعُ الهانجَ الخضمَّ ... إلى الراسخ الأشمّ
وهي من عنصرِ الفداء ... ومن جوهرِ الكرمْ

2- ويقول الشاعر أبو سلمى من قصيدة له "في الغزل"[18] :

تسائلُ كيف عرفتُ النسيبَ ... وممن تعلمتُ شعرَ الغزل؟
تعلمته من شذا وجنتيك ... إذا ما تفتّح زهرُ الأملْ
ومن شفتيك سرقتُ العبيرَ ... وحلمَ الصبا والأغاني الأُولْ
ومن مقلتيكِ قبستُ السنى ... فرفَّ على الشعر سحرُ المقلْ
ومن ثغركِ العذبِ ذُقتُ الهوى ... ولولاهُ لم أرَ وحياً نزلْ
ومن قدّك اللدْن لو تعلمين ... أوشّى القريضَ بحسن ودلّ
ومن خفةِ الدم صِغْتُ الخيالَ ... وقلتُ لقلبي عسى أو لعلّ
تعلمتُه من ليالي اللقاء ... معطرةً برفيفِ القُبلْ
ألم تعلمي بعدُ سرَّ النسيبِ ... وممن تعلمتُ قالت: أجلْ

والشاعر الشهيد عبدالرحيم ينعي على العربي تقليده الأجنبي المستعمر وتخليه عن لغته وعدم الحرص عليها علماً بأنها محور هويته، ومتوهماً أنها لاتتسع

---

[17] المصدر السابق ، نفسه ص129-130
[18] المصدر السابق، نفسه ص 145.

للحضارة ومنطلقاتها كما يشيع عنها أعداؤها، يقول من قصيدة له بعنوان "بين الشرق والغرب"[19]

لا أعرفُ العربيَّ يلوى فكّهُ ... إن همّ يوماً فكُّه بكلام
إن فاهَ تسمعُ لكنَةً ممقوتةً ... من فيه سكسونيةَ الإنغام
لفظاً من الفصحى وأخرَ نابيا ... كالغاز ممزوجاً بكأس مُدام
لهفي على الفصحى رماها معشرٌ ... من أهلها شلّت يمينُ الرامي
لم يهتدوا لكنوزها فإذا همُ ... يرمونها بالفقر والإعدام
إن يزهُ شرقي بغير العرب من ... أجداده الاتراكِ والأروام
فإنا الفخور بأنني لاينتمي ... للعُجم أخوالي ولا أعمامي
إن تسألوا عني إلى من أنتمي ... فإلى رعاةِ النوق والأغنام
أبغيرِ مجدِ بني نزار ويعربٍ ... يزهي عراقيِ ويفخر شامي

ومن الشعر الوجداني تقول "فدوى طوقان" من قصيدة لها بعنوان "الصدى الباكي"[20]

شاعري لاتقسُ في عُتبك لا تظلم وفائي
أنا حسبي قسوة الدنيا وإعناتُ القضاء
آه لو تدري بآلامي بعاسأةِ شبابي
لبكَى قلبك القاسي ليأسي وعذابي
أنا لم أنسَ هوىً فجرّ ألحاني وشعري
أنا لم أنسَ هوىً رفّت به أيامُ عمري
أنا أنسى كيف؟ لايحلمُ قلبي يانجيِّ
لا، ومن ألف روحينا على الحبِّ التقيِّ
سلْ ضمير الليلِ هل أودعته أسرارَ حبي
هل تغنيت بأشعارك في وحدة قلبي
إن هذا الليل يطوي كلَّ أسرار حياتي
إنه معبدُ أحلامي ومأوى ذكرياتي

---

[19] المصدر السابق نفسه ص164،165، ط1 دار المعارف – مصر.
[20] المصدر السابق نفسه ص173 من قصية "الصدى الباكي"

ونكتفي بهذه النصوص لبيان ما وصلت إليه حال الشعر في تلك الفترة من تطوره والتي غطت الربع الثامن من القرن العشرين، ويجدر بنا أن نقدم بعض النصوص النثرية نستشف من خلالها المستوى الفني الذي وصل إليه النثر في الحقبة الزمنية نفسها، وقد قدم السوافيري العديد من هذه النصوص وهو يترجم العديد من الكتاب والأدباء فمن ذلك نص للأديب: محمد اسعاف النشاشيبي (ت 1948ف) يتحدث فيه عن اللغة العربية فيقول[21]:

(إن العربية لو لم تكن الإبداع كله و لم تكن الجمال الأجمل، ولو لم تكن اللغة المصطفاة، ولو لم تكن لغة عجباً – لما اختارها الله لقرآنه – والله أعلم حيث يجعل رسالته– و لم تستطيع ألفاظها الاستقلال بمعانيه وكل معنى فيه يأبى أن ينزل إلا في أكرم لفظ، وكل مقصد من مقاصده لايقبل إلا أعجب أسلوب، ولن ينزل أهل السماء إلا في ذروة العلياء، والكتاب علا حتى أظل سدرة المنتهي قد أدناه وحلاوة نور بيانه حتى أراناه إياه، والشمس قد علت وقد ابتعدت، وهل يحيي أو يضئ هذه الأرض إلا الشمس؟

هذه هي أمة العرب، وهذه هي لغتها، وهذا كتابها، والأمة عجيبة، واللغة عجيبة، والكتاب عجيب، وقد مشينا في هذا الكون يهدينا كتابنا، ويسوقنا خُلقُنا، وبنينا فيه البنيان فأغربنا، وقلنا القول فأبدعنا، فدهش الرائي وحار السامع، وكان ذلك الخلق يدفعنا إلى الخير فتدفع فيه، وكان الكتاب يأمرنا بالعمل الصالح فنلبيه، وكان اللسان فصيحاً بليغاً – والفصاحة هدى والبلاغة نور – وكنا إذا قلنا أبنا، وإذا كتبنا أوضحنا، وكنا إذا استمددنا العربية– وهي ذات الأمداد في اللفظ والأسلوب– أمدت، وقد تكاثرت عليها علوم الأمم فرحبت بها كلها، وأعطت كل علم مطلوبه– وذو الثراء يجود والضنّ عند الشحيح العاجز، وكان كِتابُ العربية يحدو أهل العربية على كل علم.

وفي الكتاب ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون﴾ فكأي من عالم في الزمان الأول –قد نبغ، وكأي من كتاب قد كتب، وكأي من دار علم قد شُيِّدت، وأثر العرب الخالد شاهد، فسل الأثار عن أقدار أهلها تنبئك.

---

[21] الأدب العربي المعاصر في فلسطين –ص 288–289.

هذا عنوان البحث الذي نال عليه درجة الدكتوراة من كلية دار العلوم، وفي هذا البحث يتعرض الكاتب للاتجاهات الفنية -المذاهب أو المدارس الأدبية- فيبين خصائصها ويوضح ملامحها، ويقارن بينها وفي الأدب العربي والأدب الغربي، وهو يفضل تسميتها اتجاهات بدلاً من مُدارس أو مذاهب مدافعاً عن هذه التسمية بقولة[22] : (آثرنا استخدام كلمة اتجاه بدلاً من مذهب أو مدرسة لأن استخدام إحدى الكلمتين يعني أن تكون هناك قواعد مرسومة، وخصائص محددة تلتزم بها المدرسة، ويعتمد عليها المذهب.

وإذا كان للمذاهب الأدبية في الغرب أصول ومناهج تتقيد بها، وأزمنة محددة ظهرت فيها ثم أخذت تتصارع وتتخاصم على مر الزمن، فإن الأدب العربي لم تقم فيه هذه المذاهب، وليس معنى ذلك خلو أدبنا العربي من اتجاهات فنية ربما التقت -في بعض الخصائص والسمات- مع المذاهب الأدبية التي ظهرت في الأدب الغربي، ولكن معناه أنه ليس في أدبنا العربي مدرسة اتباعية (كلاسيكية) وأخرى ابداعية (رومانتيكية) بالمعنى الفني الدقيق.

ثم يمضي الكاتب في تعريف هذه المذاهب موضحاً أسبابها وأهم ملامحها، مقارناً بينها وبين الاتجاهات الفنية في أدبنا العربي المعاصر شارحاً نقاط الإلتقاء بينها ونقاط الاختلاف والفروق، ثم يتعرض لأشهر الأدباء والشعراء الذين غلبت عليهم مدرسة أو اتجاه بعينه في كلا الأدبين، والذي يهمنا هنا أن نرى كيف طبق هذه الاتجاهات على الأدب العربي المعاصر في فلسطين.

ففي الاتجاه الإتباعي مثلاً يورد نصاً للشاعر إبراهيم طوقان من قصيدة عنوانها: "رثاء الكاظمي" يقول منها[23]:

---

[22] الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر، ص148، ومابعدها.
[23] المرجع السابق نفسه، ص172-173.

هـي المنيـةُ مـا تنفـك سـالبةً فما تغـادرُ حيـاً غـيرَ مسـلوبِ
حقُّ العروبةِ أن تاسى لشاعرها وندرفَ الدمعَ منهلاً بمسكوبِ
وتذرفُ الزفرةَ الحرّى مصدعةً ضلوعَ كلِّ عميدِ القلبِ مكروبِ
من للقريض عريقاً في عروبته يأتي بسحرين من معنى وتركيبِ
ومن لغرِّ القوافي وهي مشرقة كأوجهِ البدويات الرعابيبِ

يعلق الكاتب على هذه القصيدة من قصائد الرثاء، وفيها من سمات الاتجاه بناؤها التقليدي، ومتانة أسلوبها، وارتباطها بالمأثور اللغوي القديم والتأثر بالشعراء السابقين في الأسلوب والخيال، إذ أن إبراهيم طوقان أخذ عن المتنبي قصيدته التي يمدح بها كافورا الأخشيدي التي مطلعها:

من الجآذرُ في زيِّ الأعاريبِ حمر الحِلَى والمطايا والجلابيب

وقد أخذ كثيراً من الألفاظ والجمل والصور، بل أخذ شطراً كاملاً هو الشطر الثاني من بيت المتنبي

ما أوجهُ الحضرِ المستحسناتُ به كأوجهِ البدويات الرعابيب

والقصيدتان من وزن واحد وقافية واحدة، وهما من بحر البسيط، وقد نقل طوقان الغرض من المدح إلى الرثاء.

وفي الاتجاه البداعي (الرومانتيكي) يعرض نصاً شعرياً للشاعر يوسف الخطيب قصيدة له بعنوان "العندليب المهاجر" يقول فيها: (محاوراً العندليب المهاجر ومقارناً بينه وبينه)[24] :

أترُاكَ مثلي يارفيقُ تمرُّ في الزمنِ؟
عبرَ المهالكِ والليالي السودِ والمحنِ

[24] المصدر السابق نفسه، ص239-240، والقصيدة في ديوان الشاعر يوسف الخطيب "عائدون" ص9 ومابعدها.

كان في قيثارتي بعض النمغ من وطني

ويلمح الشاعر في العندليب وجومه وتجهمه وتبرمه بالحياة فيحسُّ أنه يشاطره بؤسه وشقاءه في نزوحه واغترابه عن وطنه:

وأكادُ ألمحُ في وجومك لونَ مأساتي
جرحي وملحمتي وتشريدي وآهاتي

ثم يمضي الشاعر في مساءلة العندليب ومحاورته، فيسأله عن الوطن والديار وأن كان قد أحضر معه تذكاراً من ملاعب الصبا ومدارج الطفولة:

بي لهفةٌ ياصاحبي مشبوبةُ النارِ
هل بعضُ أخبارٍ تحدثها وأسرارِ؟
كيفَ الحقولُ تركتها في عرسِ آذارِ؟
ومتى لويتَ جناحك الزاهي عن الدارِ؟
عجباً تُراكَ اتيتنا من غيرِ تذكارِ؟

وما ذلك التذكار الذي يريده الشاعر من البلبل؟ إنه يكتفي بأي شئ يحمل رائحة الوطن، يكتفي بقشة مما يزف ببيدر البلد، أو رملتين من ربا صفد أو عشبة من الأعشاب بيد، ومزقة سوسن باليد الأخرى، إذ يقول:

لو قشّةٌ مما يرفُّ ببيدرِ البلدِ
خباتها بين الجناح وخفقة الكبدِ
لو رملتان من المثلث أو ربُا صفد
لو عشبةٌ بيدٍ، ومزقةُ سوسنٍ بيدِ
أين الهدايا قد برحت مرابع الرَّغدِ؟
أم جئتَ مثلي بالحنين وسورةِ الكمدِ؟

وهناك يحن الشاعر إلى دار طفولته وعهده فيها وأمسياتها الضاحكة، وتهفو نفسه إلى ملاعب صباه، وإلى لياليه الباسمة مع رفاق عمره فيقول:

عهدي بدارِ طفولتي سحريةُ الصورِ
مغسولةُ الرَبواتِ في شلالة القمرِ
أواهُ كم من أمسيّةٍ عربيةِ السمرِ
كانت لنا في كلِّ رابيةٍ ومنحدرِ

وأما الاتجاه الرمزي فقد عرض الكاتب العديد من النصوص تمثل الرمزية بأنواعها: الموضوعي والتعبيري والأسطوري، ونكتفي -هنا- بنص من قصيدة للشاعر كمال ناصر عنوانها "التفاحة المحرمة" يقول فيها[25] :

تفاحتي كانت على دربي
تفيضُ بالنعمى وبالنورِ
وبالندى
تفاحتي دربي
تناثرت في ملعب الحبِّ
أحبها الردي
فاغتالها الردى
ومات في أرجائها صحبي
أطعمتها في حالك الخطبِ
لتخلدا في ثورة الفدا
تفاحتي ... جريمتي ... ذنبي
وملعبي المطعون في جنبي
مزقها العدا
تفاحتي شعبي تشردا

[25] المصدر السابق نفسه ص326، والقصيدة في ديوان الشاعر كمال ناصر. "جراح تغني" ص17 وما بعدها.

ليفتدي ويُفتدى
ليـولـد! .....!

هـذه قصيـدة مـن الشـعر الحـر استخدم الشـاعر أسـطورة قطـف التفاحـة مـن الفردوس لمولد الحياة على ظهر الأرض إذ لولاها ما ولدت الحياة.

لقد كان قطف التفاحة شراً أعقبه خير، وكذلـك كـانت مأسـاة فلسـطين شـراً نتج عنه خير! فلولا العداون الصهيوني الغادر على فلسطين وشعبها مـا بـزغ فجـر البعث العربي -ندعو الله أن يتحقق ذلك، ولو في المستقبل المنظور.

والقصيدة من الرمزية الأسطورية، وإن امتزجت بهـا رمزيـة الأسـلوب في كثـير من تعبيرات الشاعر مثـل: ضلـع القـدر، وانتحـار الطهـر في دنيـا الهـوى، وتفيـض بالنعمى وبالنور، وملعبي المطعون، وقد غلف الغموض أداء الشاعر بعض الشئ.

وحين يتحدث الكاتب عن الغربة في الشعر الفلسطيني يقول[26] :

"إن الغربة في الشعر الفلسطيني:

أولاً:- لم تكن غربة شخص أو أشخاص، ولكنها كانت غربـة شـعب بأسـره، كانت غربة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً.

ثانياً: لم تكن غربة مكان فحسب بل غربة روح وحياة.

ثالثاً: كان في وسع أي مغترب أن يعود إلى البلد الـذي يتشـوق إليـه في الوقـت الذي يريد، ولم يكن في وسع ابناء فلسطين العودة إلى وطنهم.

كانت الغربة في الشعر الفلسطيني تعني الضياع والشقاء والبـؤس، وكـان الحنـين للوطن، والعودة إلى مغانيه يعني الحياة والبهجة والبشر.

كان الماضي في نظر شعراء فلسطين سعادة تقضّت، وعزّا ولي، وبهجة تلاشت، وصفحة من صفحات الهناءة والبشر طُويت".

---

[26] المصدر السابق نفسه ص238.

أراؤه النقديـة

اشتهر السوافيري بكونه ناقداً متميزاً عـالج كثيراً مـن قضايـا النقـد الأدبـي مـن خلال مقالاته في المجالات والصحف العديدة، وفي كتبه ومؤلفاته، بل إنـه قـد قـدم مؤلفاً بعنوان: (دراسـات في الأدب والنقـد) طبـع في أربعمائـة صفحـة تعـرض فيـه لقضايا النقد قديماً وحديثاً، في أسلوب رشيق يمتاز بالدقة والوضوح والجمال، يشير إلى تمكن الكاتب واقتداره على أن يوصـل أراءه إلى القـراء علـى الرغـم ممـا يعـتري قضايا النقد من عمق يحسبه الكثيرون غموضاً وتعقيداً.

وسنكتفي بعرض أرائه في موضوعين هما:

الذوق والناقد الأدبي – وضمير الناقد الأدبي.

وهو حين يتحدث عن "ذوق الناقد الأدبي" يقول[27] :

"من الشروط الـتي يتحتـم أن تتحقـق في النـاقد الـذوق، لأنـه الأسـاس في كـل حكم، والفيصل في كل نقد، والموجه في كل تقويم.

إن فهمنا للأدب يخضع للفكر، وقوانين الفكر ثابتة، وتذوقنـا لـلأدب للعاطفـة، والعاطفة تختلف من إنسان لأخر، وهذا ما يفسـر لنـا اختـلاف النقـاد حـول القيـم الفنية لبعض النصوص والأعمال الأدبية، واختلاف أحكامهم عليها.

فإذا كنا لانكاد نختلـف في أفكـار ومعـاني القصيـدة ومضمـون المقالـة والقصـة والمسرحية ولايعيينا والشرح والتحليل، فإننا نختلـف في أذواقنـا وأحساسـنا بمواطـن الجمال.

وهو يرى أن الذوق الذي يعتد به هو الذوق القائم على التعليل والتدليل والذي لايرجع إلى العاطفة وحدها، وإنما يشارك فيه الفكر، ويؤازر المنطق ويساعد العقل، ويغدو الذوق عندئذ مركباً من العاطفة والفكر والحس، وتغدو أحكامـه أقـرب إلى الصواب، وأدنى إلى الحق والعدل.

---

[27] دراسات في النقد الأدبي –ط1، ص129 – مكتبة الوعي العربي – القاهرة.

في مستقبل الأيام مادامت ومضات الفن تشع على الحياة ولمحات العبقرية تتجلى في المبدعين: ص129 وما بعد بتصرف.

وفي الموضوع الثاني "ضمير الناقد الأدبي" ص136 وما بعدها يقول[28]:

(إن أهم الشروط التي يجب توافرها في الناقد أربعة هي: الثقافة الواسعة والتجربة الكاملة والذوق المرهف والضمير اليقظ، ونعني به أن يتوخى الناقد في نقده وجه الحق ويتجه لما يرى أنه الصواب، ويتحرى العدل في أحكامه، ويبتعد عن التأثر بالهوى ويحاول ما استطاع أن يبرأ من الغرض فلا يجامل الأصدقاء والأنصار، ولايتحامل على الأعداء والخصوم، وإنما يقضي بالعدل.

وضمير الناقد وتوخيه العدل وابتعاده عن المؤثرات الشخصية أهم الأركان في النقد وأهم الشروط في الناقد، إذ بدونه لاتجدى المعرفة، ولاتنفع التجربة، ولايصح الحكم ولايعتدل الميزان.

وعيب الناقد في مجاملة الصديق وتجريح العدو لايقف أثره عند الناقد والمنقود فحسب بل يمتد خطره إلى أفاق القراء من هواة الأدب وعشاق الفن، وبخاصة الشادين الذين لم تكتمل في أذهانهم بعد الصور الفنية الجميلة للنماذج الرفيعة عندما يجدون اطراء لما لايستحق الاطراء، وهجوماً على مالايستحق التحامل والهجوم.

وكم من أدب رفيع، وشعر جيد وطيد، وأثر فني سام تعرض لحملات نقدية ظالمة، وهجمات حاقدة للحط من شأنه، والغض من قدره فمحا الزمن ذلك النقد الجائر، وظل الأدب سامق البناء رفيع العماد تتغنى به الأمم وتردده الحقب، لافي النقد المعاصر فحسب بل في النقد القديم أيضاً".

د. أمين صالح العمصي

---

[28] المصدر السابق نفسه –ص136 ومابعدها.

الهوامش والمصادر

1- د. كامل السوافيري - الشعر العربي في مأساة فلسطين - ط نهضة مصر - القاهرة ص11-12.

2- د. شكري فيصل - مجلة الرسالة القاهرية العدد 776.

3- فدوى طوقان - ديوان "وحدي مع الأيام" ص127.

4- قدري حافظ طوقان - بعد النكبة- ص6.

5- د. كامل السوافيري - الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين ص16.

6- المصدر السابق نفسه ص300، 301.

7- المصدر السابق نفسه ص263 عن ديوان الهوى والشباب ص165.

8 - المصدر السابق نفسه وديوان أبي ريشه ط مجلة الآداب ص145.

9- المصدر السابق نفسه ص272.

10- المصدر السابق نفسه ص 321.

11- قصيدة (ذكرى وعد بلفور) نشرت في مجلة الفتح العدد 577.

12- الشعر العربي في مأساة فلسطين ص358، 359.

13- فدوى طوقان - ديوان وحدى مع الأيام - ص127.

14- الشعر العربي الحديث - ص 562. د. كامل السوافيري.

15- د. كامل السوافيري الأدب العربي المعاصر في فلسطين ط دار المعارف ص34، 35 بتصرف.

16- المصدر السابق نفسه ص73 بتصرف.

17- المصدر السابق نفسه ص 129، 130.

18- المصدر السابق نفسه ص 145.

19- المصدر السابق نفسه ص164، 165.

20- المصدر السابق نفسه ص173 من قصيدة "الصدى الباكي"- ديـوان "وحـدي مع الأيام"

21- المصدر السابق نفسه ص288 ، 289.

22- د. كامل السوافيري - الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر - مكتبة الانجلو ص148.

23- المصدر السابق نفسه ص 172 - 173.

24- المصدر السابق نفسه ص 239-240، ديوان يوسف الخطيب "عائدون" ص9.

25- المصدر السابق نفسه ص326، وفي ديوان كمال ناصر "جراح نغمى" ص17.

26- المصدر السابق نفسه ص 238.

27- د. كامل السوافيري دراسات في النقد الأدبـي -ط1- مكتبـة الوعـي العربـي ص129.

28- المصدر السابق نفسه ص 136 ومابعدها.